بسم الله الرحمن الرحيم

تقديم

وعيت وأنا تلميذ بالمدارس الابتدائية مناقشة فكرية ، إذ أخرج القس (إبراهيم لوقا) كتابا أسماه (المسيحية في الإسلام) تعرّض فيه لإثبات بعض وجهات النظر العقائدية عند المسحيين - بنصوص القرآن الكريم ، وأثار هذا الكتاب وقتها ما أثار ، وتصدى له كاتب مسلم هو الأستاذ محيي الدين سعيد البغدادي فدبّج مقالات مطولة متتابعة استغرقت من صفحات مجلة (الإسلام) حيزاً كبيراً وأمداً طويلاً .

تفتّح تفكيري إذن على هذا اللون من الاتصال - أو الاحتكاك - بين المسيحية والإسلام ، لون الجدل العقائدي في عُقد الخلاف التاريخية الحساسة بين الدينين العظيمين ، وكنت أمارس أحيانا بعض الصور المتواضعة لهذا اللون من الجدل مع زميل مسيحي أثناء التعليم الثانوي .. حتى إذا اتجهت إلى الجامعة ازددت شغفاً بمتابعة الدراسة في التاريخ الفكري والحضاري للديانات على مستوى علمي ، وكنت أجد في محاضرات الأستاذ الدكتور عزيز سوريال عطية عن تاريخ الرهبنة والديرية والبابوية والحروب الصليبية متعة رائعة ، كما تلذذت أيضاً وأنا أدرس على الأستاذ الدكتور محمد شكري تاريخ الإصلاح الديني في المذهبين البروتستنتي والكاثوليكي Reformation , Counter Reformation في أوربا ، وعكفت بعد تخرجي من كلية الآداب على الدراسات الإسلامية عموماً والتاريخ الإسلامي خاصة ، ولكني لم أنصرف عن الدراسات المقارنة في الديانات والمذاهب ...

حتى كان هذا الكتاب .

طالعت القرآن فوجدت (لأهل الكتاب) فيه نصيباً مذكوراً ، ودرست التاريخ الإسلامي فوجدت (لأهل الذمة) في المجتمع والدولة رصيداً مذخوراً ... وتأملت الفكر الإسلامي فوجدته يلتقي في بعض صوره مع الفكر المسيحي - لا منذ درس المسلمون

الفلسفة واتجهوا للتصوف واتصلوا بالسريان والنساطرة فحسب ، بل منذ الينابيع الأولى ... نجد هذا اللقاء في قصص الأنبياء ، ومن ذلك قصص إبراهيم وإسحق ويعقوب ، ويوسف وموسى ، وداود وسليمان ، وأخيراً زكريا ويحيى ومريم ثم المسيح عيسى ابن مريم .

تقرأ في إنجيل لوقا عن زكريا وزوجه :

«ولم يكن لهما ولد إذ كانت إليصابات عاقراً ، وكانا كلاهما متقدمين في أيامهما . فبينما هو يكهن في نوبة فرقته أمام الله حسب عادة الكهنوت ، أصابته القرعة أن يدخل إلى هيكل الرب ويُبخِّر . وكان كل جمهور الشعب يصلون خارجاً وقت البخور ، فظهر له ملاك الرب واقفاً عن يمين مذبح البخور ، فلما رآه زكريا اضطرب ووقع عليه خوف ، فقال له الملاك : لا تخف يا زكريا لأن طلبتك قد سمعت وامرأتك إليصابات ستلد لك ابناً وتسميه يوحنا ، ويكون لك فرح وابتهاج وكثيرون سيفرحون بولادته لأنه يكون عظيماً أمام الرب ... فقال زكريا للملاك . كيف أعلم هذا ، لأني أنا شيخ وامرأتي متقدمة في أيامها ؟ فأجاب الملاك وقال له : أنا جبرائيل الواقف قدّام الله وأُرسلت لأكلمك وأبشرك بهذا ، وها أنت تكون صامتاً ولا تقدر أن تتكلم إلى اليوم الذي يكون فيه هذا لأنك لم تصدّق كلامي الذي سيتم في وقته . وكان الشعب منتظرين زكريا ومتعجبين من إبطائه في الهيكل ، فلما خرج لم يستطع أن يكلمهم ففهموا أنه قد رأى رؤيا في الهيكل ، فكان يومئ إليهم وبقي صامتاً » (لو ١ : ٧-٢٢) .

﴿هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُۥ ۖ قَالَ رَبِّ هَبْ لِى مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً ۖ إِنَّكَ سَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ ﴿٣٨﴾ فَنَادَتْهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَهُوَ قَآئِمٌ يُصَلِّى فِى ٱلْمِحْرَابِ أَنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَىٰ مُصَدِّقًۢا بِكَلِمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٣٩﴾ قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِى غُلَٰمٌ وَقَدْ بَلَغَنِىَ ٱلْكِبَرُ وَٱمْرَأَتِى عَاقِرٌ ۖ قَالَ كَذَٰلِكَ ٱللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ ﴿٤٠﴾ قَالَ رَبِّ ٱجْعَل لِّىٓ ءَايَةً ۚ قَالَ ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمْزًا ۗ وَٱذْكُر رَّبَّكَ كَثِيرًا وَسَبِّحْ بِٱلْعَشِىِّ وَٱلْإِبْكَٰرِ ﴿٤١﴾﴾ [آل عمران : ٣٨ - ٤١] .

﴿ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدَهُۥ زَكَرِيَّآ ۝ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ نِدَآءً خَفِيًّا ۝ قَالَ رَبِّ إِنِّى وَهَنَ ٱلْعَظْمُ مِنِّى وَٱشْتَعَلَ ٱلرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُنۢ بِدُعَآئِكَ رَبِّ شَقِيًّا ۝ وَإِنِّى خِفْتُ ٱلْمَوَٰلِىَ مِن وَرَآءِى وَكَانَتِ ٱمْرَأَتِى عَاقِرًا فَهَبْ لِى مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا ۝ يَرِثُنِى وَيَرِثُ مِنْ ءَالِ يَعْقُوبَ وَٱجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا ۝ يَٰزَكَرِيَّآ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَٰمٍ ٱسْمُهُۥ يَحْيَىٰ لَمْ نَجْعَل لَّهُۥ مِن قَبْلُ سَمِيًّا ۝ قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِى غُلَٰمٌ وَكَانَتِ ٱمْرَأَتِى عَاقِرًا وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ ٱلْكِبَرِ عِتِيًّا ۝ قَالَ كَذَٰلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَىَّ هَيِّنٌ وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِن قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْـًٔا ۝ قَالَ رَبِّ ٱجْعَل لِّىٓ ءَايَةً قَالَ ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَٰثَ لَيَالٍ سَوِيًّا ۝ فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ مِنَ ٱلْمِحْرَابِ فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ أَن سَبِّحُوا۟ بُكْرَةً وَعَشِيًّا﴾ [مريم: ٢-١١].

ألا ترى أن الصورتين: المسيحية والإسلامية تتفقان، حتى في كثير من التفاصيل ؟؟

كذلك نرى الجمع بين مولد يحيى (يوحنا) بن زكريا، ومولد عيسى ابن مريم في مقام واحد من القول في إنجيل لوقا وفي سورتي آل عمران ومريم، ولا عجب فقد كان أولهما مقدمة بين يدي الآخر.

«وفي الشهر السادس أُرسل جبرائيل الملاك من الله إلى مدينة من الجليل اسمها ناصرة إلى عذراء مخطوبة لرجل من بيت داود اسمه يوسف، واسم العذراء مريم. فدخل إليها الملاك وقال: سلام لك أيتها المنعم عليها، الرب معك، مباركة أنت في النساء! فلما رأته اضطربت من كلامه، وفكرت ما عسى أن تكون هذه التحية؟ فقال لها الملاك: لا تخافي يا مريم لأنك قد وجدت نعمة عند الله، وها أنت ستحبلين وتلدين ابناً وتسمينه يسوع، هذا يكون عظيماً، وابن العلي يدعى، ويعطيه الرب الإله كرسي داود أبيه ويملك على بيت يعقوب إلى الأبد ولا يكون لملكه نهاية. فقالت مريم للملاك: كيف يكون هذا وأنا لست أعرف رجلاً ؟ فأجاب الملاك وقال لها الروح القدس يحل عليك وقوة العلي تظللك، فلذلك أيضاً القدوس المولود منك يدعى ابن الله. وهو ذا إليصابات نسيبتك هي أيضاً حبلى في شيخوختها وهذا هو الشهر السادس لتلك المدعوة عاقراً، لأنه ليس شيء غير ممكن لدى الله» (لو ١: ٢٦-٣٧).

وفي القرآن ما كادت آل عمران تختتم حديث مولد يحيى ﴿وَٱذْكُر رَّبَّكَ كَثِيرًا وَسَبِّحْ بِٱلْعَشِيِّ وَٱلْإِبْكَٰرِ﴾ حتى استهلت حديث مولد مريم :

﴿وَإِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰكِ وَطَهَّرَكِ وَٱصْطَفَىٰكِ عَلَىٰ نِسَآءِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٢﴾ يَٰمَرْيَمُ ٱقْنُتِى لِرَبِّكِ وَٱسْجُدِى وَٱرْكَعِى مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ ﴿٤٣﴾ ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ ۚ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَٰمَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ ﴿٤٤﴾ إِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ ٱسْمُهُ ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿٤٥﴾ وَيُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِى ٱلْمَهْدِ وَكَهْلًا وَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٤٦﴾ قَالَتْ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِى وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِى بَشَرٌ ۖ قَالَ كَذَٰلِكِ ٱللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۚ إِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٤٧﴾﴾ [آل عمران : ٤٢ - ٤٧] .

وما كادت سورة مريم تختتم حديث مولد يحيى ﴿وَسَلَٰمٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا﴾ حتى استهلّت حديث مولد مريم : ﴿وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ مَرْيَمَ إِذِ ٱنتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا ﴿١٦﴾ فَٱتَّخَذَتْ مِن دُونِهِمْ حِجَابًا فَأَرْسَلْنَآ إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا ﴿١٧﴾ قَالَتْ إِنِّىٓ أَعُوذُ بِٱلرَّحْمَٰنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيًّا ﴿١٨﴾ قَالَ إِنَّمَآ أَنَا۠ رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَٰمًا زَكِيًّا ﴿١٩﴾ قَالَتْ أَنَّىٰ يَكُونُ لِى غُلَٰمٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِى بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا ﴿٢٠﴾ قَالَ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَىَّ هَيِّنٌ وَلِنَجْعَلَهُۥٓ ءَايَةً لِّلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِّنَّا ۚ وَكَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا ﴿٢١﴾﴾ [مريم : ١٦ - ٢١] .

والتشابه واضح في السياق لا يحتاج إلى إشارة أو بيان ، إذا استبعدنا المشكلة الخلافية المعروفة : تسمية المسيح ابن الله .

ثم نلمس في ثنايا الكتابين تقارباً في التعبير عن بعض الصور الكونية والنفسية... «إن يوماً عند الرب كألف سنة » (بطرس ٣ : ٨-٩) ، وفي القرآن ﴿وَإِنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ﴾ [الحج : ٤٧] . وفي أعمال الرسل «... ستسمعون سمعاً ولا تفهمون ، وستنظرون نظراً ولا تبصرون ، ولأن قلب هذا الشعب قد غلظ وبآذانهم سمعوا ثقيلاً وأعينهم أغمضوها ، لئلا يبصروا بأعينهم ويسمعوا بآذانهم ويفهموا بقلوبهم ويرجعوا

فأشفيهم » (أعمال ٢٨ : ٢٦-٢٧) ، وفي القرآن تصويرات عدة لهذا المعنى : ﴿لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَآ ۚ أُولَٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ ۚ أُولَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ﴾ [الأعراف : ١٧٩] ﴿خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ ۖ وَعَلَىٰٓ أَبْصَٰرِهِمْ غِشَٰوَةٌ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [البقرة : ٧] ﴿صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ﴾ [البقرة : ١٨] .

وإذا كان القرآن - ينبوع الفكر الإسلامي - قد أذن لمجرى تفكير المسلمين أن يكون على هذه الصورة من الاتساع ، فهو لم يخرج في هذا عن قاعدته الثابتة الراسخة ﴿قُولُوٓا۟ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَآ أُوتِىَ ٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ﴾ [البقرة : ١٣٦] ، ﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِۦ ۚ وَقَالُوا۟ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۖ غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ﴾ [البقرة : ٢٨٥] ، ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ ۖ أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ﴾ [الشورى : ١٣] .

وجاءت السنة النبوية تعزز هذا التفكير الجامع ، ففي الحديث الشريف : «بلغوا عني ولو آية ، وحدثوا عن بني إسرائيل ولا حرج ، ومن كذب عليَّ متعمداً فليتبوأ مقعده من النار» يقول ابن كثير بعد إيراد الحديث «رواه البخاري عن عبدالله بن عمرو - وكان قد أصاب يوم اليرموك زاملتين من كتب أهل الكتاب ، فكان يحدث منهما بما فهمه من هذا الحديث من الإذن في ذلك . ولكن هذه الأحاديث الإسرائيلية تذكر للاستشهاد لا للاعتضاد ، فإنها على ثلاثة أقسام: أحدها : ما علمنا صحته مما بأيدينا مما يشهد له بالصدق فذاك صحيح ، والثاني : ما علمنا كذبه مما عندنا ما يخالفه ، والثالث : ما هو مسكوت عنه لا من هذا القبيل ولا من هذا القبيل فلا نؤمن به ولا نكذبه ويجوز حكايته لما تقدم .. ويختلف علماء أهل الكتاب في هذا كثيراً ، ويأتي من المفسرين خلاف بسبب

ذلك .. وأحسن ما يكون في حكاية الخلاف أن تستوعب الأقوال في ذلك المقام ، وأن يُنبِّه على الصحيح منها ويُبطل الباطل وتذكر فائدة الخلاف وثمرته »[1] .

غير أن الناس لا تمحص الأمور هذا التمحيص ، ومن هنا غطّت الخلافات المتعصبة على البحث المستنير .. وفضل الدعاة والمرشدون أن يلجأوا إلى تحقيق التوافق بين أهل الديانات عن طريق تربية المجتمع عمليًّا على آداب السلوك الرفيع ، بعد أن عزّت الدراسات الفكرية الهادئة الجادة ، التي لا أقول تحل عقدة الأذهان والنفوس ، ولكنها على الأقل تكشف كلًّا من الإسلام والمسيحية وصلة الإسلام بالمسيحية تحت أضواء العلم الصحيح ، وحينئذ تتجاوب العقول ليتحقق التوافق تلقائيًّا على مستوى أعمق وأدوم في علاقات الناس .

فكّرت في هذا كله ووجدت الإسلام معرضاً على المسلمين والمسيحيين في كتابات عربية عصرية مبسطة ، ولم أجد للمسيحية مثل هذا العرض في أدبنا الحديث والمعاصر إلا قليلاً .. وقد يكون من دواعي هذا أن الاستعمار الغربي قد أراد أن يجرّ المسيحية في ركابه أثناء الحروب الصليبية والاستعمارية ، فوقف المسلمون موقف الدفاع ، ووقف المسيحيون موقف الحذر .

كتب رحمة الله بن خليل الرحمن الهندي في مقدمة كتابه المشهور (إظهار الحق) : «إن الدولة الإنجليزية تسلّطت على مملكة الهند تسلطاً قويًّا .. ومن ابتداء سلطتهم إلى ٤٣ سنة ما ظهرت الدعوة من علمائهم إلى مذهبهم ، وبعدها أخذوا في الدعوة . وكانوا يتدرجون فيها حتى ألّفوا الرسائل والكتب في رد أهل الإسلام ، وقسموها في الأمصار بين العوام ، وشرعوا في الوعظ في الأسواق ومجامع الناس والشوارع العامة ، وكان عوام أهل الإسلام إلى مدة متنفِّرين عن استماع وعظهم ومطالعة رسائلهم فلم يلتفت أحد من علماء الهند إلى تلك الرسائل . لكن تطرّق الوهن بعد مدة في تنفّر بعض العوام ، وحصل خوف مزلة أقدام بعض الجهال فعند ذلك توجه بعض علماء أهل الإسلام إلى ردهم .

---

١ – تفسير ابن كثير : المقدمة ص ٤ .

وإني وإن كنت منزوياً في زاوية الخجول ، وما كنت معدوداً في زمرة العلماء الفحول ، لكني لما اطلعت على تقريراتهم وتحريراتهم ووصلت إليّ رسائل كثيرة من مؤلفاتهم ، استحسنت أن أجتهد أيضاً بقدر الوسع والإمكان ؛ فألفت أولاً الكتب والرسائل ليظهر الحال على أولي الألباب ، واستدعيت ثانياً من القسيس الذي كان بارعاً وأعلى كعباً من العلماء المسيحيين الذين كانوا في الهند مشتغلين بالطعن والجرح على الملة الإسلامية تحريراً وتقريراً - أعني مؤلف ميزان الحق - أن يقع بيني وبينه المناظرة في المجلس العام ليتضح حق الاتضاح أن عدم توجه العلماء الإسلامية ليس لعجزهم عن ردّ رسائل القسيسين كما هو مزعوم بعض المسيحيين . فتقررت المناظرة في المسائل الخمس التي هي أمهات المسائل المتنازعة بين المسيحيين والمسلمين أعني التحريف ، والنسخ ، والتثليث ، وحقية القرآن ، ونبوّة محمد .

فانعقد المجلس العام في رجب سنة ١٢٧٠ هـ في أكبر أباد ، وكان بعض الأحباء معيناً لي في المجلس وكان بعض القسس معيناً للقسيس الموصوف ، فظهرت الغلبة لنا بفضل الله في مسئلتي النسخ والتحريف اللتين كانتا من أدق المسائل وأقدمها في زعم القسيس - كما تدل عليه عباراته في كتاب حل الإشكال - فإذ رأى ذلك سد باب المناظرة في المسائل الثلاث الباقية ».

ولست بالذي ينكر أهمية العقيدة واختلافاتها في بناء أي دين ، ولا بالذي ينكر أهمية الفروق بين المسيحية والإسلام ، لكني أقول إن المسيحية ليست فقط هي التثليث والصليب !! إن الأناجيل المتداولة زاخرة بالقصص والأمثال والوصايا التي هي معين لأدب أخلاقي إنساني ينهل منه كل متديّن وكل صاحب خلق وعقل ، لكن هذا كله يضيع في زحام الخلافات العقائدية المحدودة !!

فالكثير من المؤلفات تجعل مدار بحثها المجادلات العقائدية وحدها . من ذلك ما كتبه الإمام الجليل أبو محمد على بن حزم في موسوعته العقائدية (الفصل في الملل والأهواء والنحل) : «معتمد النصارى كله الذي لا معتمد لهم غيره من قولهم بالتثليث ، وإن المسيح إله وابن الله ، واتحاد اللاهوتية بالناسوتية والتحامه به - إنما هو كله على أناجيلهم وعلى

ألفاظ تعلقوا بها مما في كتب اليهود كالزبور وكتاب أشعيا وكتاب أرميا ، وكلمات يسيرة من التوراة ، وكتاب سليمان وكتاب زخريا ، وقد نازعتهم اليهود في تأويلها فحصلت دعوى مقابلة لدعوى .. وقد أوضحنا بحول الله تعالى وقوته فساد أعيان تلك الكتب وأوضحنا أيضاً فساد نقلها وانقطاع الطريق منهم إلى من نسب إليه تلك الكتب .. ثم نورد تكذيبهم في دعواهم أن التوراة عند اليهود وعندهم سواء ، ونورد ما يخالفون فيه نص التوراة التي عند اليهود (ولا يصح لأحد الاحتجاج بتصحيح ما يكذبه) ، ثم نذكر مناقضات الأناجيل»[1] .. وعلى هذا المنوال يسير الكتاب ، متعقباً روايات بعض الأنساب والوقائع مثبتاً اختلافها .

أفليس في تعاليم المسيحية الشيء الكثير الذي تتفق عليه جميع الأديان ، والذي يستفيد منه الفكر الديني على وجه العموم ؟؟

وإن الإسلام يقدر أثر المسيحية - في واقعها القائم ، ولها وضعها باعتبارها الرسالة التي تقدّمته مباشرة ، وباعتبار الدينين قد أقاما حضارتين عالميتين تنافستا بكل سبيل . وقد وصف الإسلام أتباع المسيح خصوصاً بأنهم أقرب مودة للذين آمنوا وأنهم لايستكبرون . وميز أهل الكتاب عموماً في التشريع ﴿ٱلْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمُ ٱلطَّيِّبَٰتُ ۖ وَطَعَامُ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ حِلٌّ لَّكُمْ ۖ وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَّهُمْ ۖ وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ﴾ [المائدة : ٥]

بهذه العشرة الكريمة من مؤاكلة ومشاربة ، ومعاملة ومصاهرة حددّ الإسلام مركز الكتابيين ، على ما في كتبهم مما ليس يرضاه ، وذلك على خلاف المشركين ﴿وَلَا تَنكِحُوا۟ ٱلْمُشْرِكَٰتِ حَتَّىٰ يُؤْمِنَّ ۚ وَلَأَمَةٌ مُّؤْمِنَةٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكَةٍ وَلَوْ أَعْجَبَتْكُمْ ۗ وَلَا تُنكِحُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ حَتَّىٰ يُؤْمِنُوا۟ ۚ وَلَعَبْدٌ مُّؤْمِنٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكٍ وَلَوْ أَعْجَبَكُمْ﴾ [البقرة : ٢٢١]. والعلاقة الزوجية التي أقرها الإسلام بين المسلم والكتابية ، هي العلاقة التي عبّر عنها القرآن بقوله ﴿مِّيثَٰقًا غَلِيظًا﴾ [النساء : ٢١] ، وصوّرها المسيح «أما قرأتم أن الذي خلق من البدء خلقهما ذكراً

---

١ - ابن حزم : الفصل في الملل والأهواء والنحل - طبعة صبيح - ص ٦ وما بعدها .

وأنثى . من أجل هذا يترك الرجل أباه وأمه ويلتصق بامرأته ، ويكون الاثنان جسداً واحداً» [1].

ثم إن خلافات العقيدة بين الإسلام والمسيحية ليست في ضوء الدراسة الرصينة بهذا الضيق ، فلئن كانت الأناجيل المتداولة قد أطلقت على المسيح (ابن الله) ، فهو قد سمى نفسه (ابن الإنسان) في أكثر من موضع من هذه الأناجيل [2] . حقًّا تحدّثت النصوص المسيحية المتداولة باللفظ الصريح عن (الأب السموي) «فهكذا أبي السموي يفعل بكم ، إن لم تتركوا من قلوبكم كل واحد لأخيه زلاته» (مت ١٨ : ٣٥) وعن المسيح الابن «وصوت من السموات قائلاً : هذا هو ابني الحبيب الذي به سررت» (مت ٣ : ١٧ مر ١ : ١١ ، لو ٣ : ٢٢) ، غير أن التعبير بأبوة الله قد ورد مرات لغير المسيح » ولكنكم الآن تطلبون أن تقتلوني وأنا إنسان قد كلمكم بالحق الذي سمعه من الله ، هذا لم يعمله إبراهيم ، أنتم تعملون أعمال أبيكم . فقالوا له : إننا لم نولد من زنا ، **لنا أب واحد وهو الله** ، فقال لهم يسوع : لو كان الله أباكم لكنتم تحبونني لأنني خرجت من قبل الله وأتيت ، لأني لم آت من نفسي بل ذاك أرسلني» (يو ٨ : ٤٠ - ٤٢) ، وفي أعمال الرسل «لكي يطلبوا الله لعلهم يتلمسونه فيجدوه ، مع أنه عن كل واحد منا ليس بعيداً لأننا به نحيا ونتحرك ونوجد ، كما قال بعض شعرائكم أيضاً لأننا أيضاً ذريته ، **فإذا نحن ذرية الله** لا ينبغي أن نظن أن اللاهوت شبيه بذهب أو فضة أو حجر نقش صناعة واختراع إنسان » (أعمال ١٧ : ٢٧ - ٢٩) وفي الرسالة إلى أهل رومية «لأن كل الذين ينقادون بروح الله فأولئك هم **أبناء الله** ، إذ لم تأخذوا روح العبودية أيضاً للخوف ، بل أخذتم روح التبني الذي به نصرخ يا أبا الآب . الروح نفسه يشهد لأرواحنا أننا **أولاد الله** ، فإن كنا أولاد فإننا ورثة أيضاً - ورثة الله ووارثون مع المسيح» (رومية ٨ : ١٤ - ١٧) وهناك أيضاً «إن كنتم تحتملون التأديب يعاملكم الله كالبنين» (عبرانيين ١٢ : ٧) «انظروا أية محبة أعطانا الأب حتى ندعى **أبناء الله** » (رسالة يوحنا الرسول الأولى ٣ : ١)

١- مت ١٩ : ٤-٥ بعبارات أخرى مر ١٠ : ٦-٨.

٢- على سبيل المثال مت : ٨ : ٢٠ ، ١١ : ١٩ ، ١٢ : ٤٠ ، ٢٠ : ٢٨ ، ٢٥ : ٣١ ، مر ٢ : ٢٨ ، ٩ : ٩ ، ١٤ : ٤١ ، لو ٩ : ٥٦ ، ١٧ : ٢٤ ، ٢٦ ، ٣٠ ، ١٨ : ٨ ، يو ٣ : ١٣ ، ٥ : ٢٧ ، ١٣ : ٣١ .

«أيها الأحباء لنحب بعضنا بعضاً لأن المحبة هي من الله ، وكل من يحب فقد **ولد من الله** ويعرف الله» (نفس الرسالة : ٤ : ٧) .

وثمة إشارات في ثنايا الأناجيل المتداولة عن نبوّة المسيح «بل ينبغي أن أسير اليوم وغداً وما يليه ، لأنه لايمكن أن يهلك **نبي** خارجاً عن أورشليم ، يا أورشليم يا أورشليم ، يا قاتلة **الأنبياء** وراجمة **المرسلين**» (لو ١٣ : ٣٣ - ٣٤) «وإذا اثنان منهم كانا منطلقين في ذلك اليوم إلى قرية بعيدة عن أورشليم ستين . غلوة اسمها عمواس ، كانا يتكلمان بعضهما مع بعض عن جميع هذه الحوادث . وفيما هما يتكلمان ويتحاوران اقترب إليهما يسوع نفسه وكان يمشي معهما ، ولكن أمسكت أعينهما عن معرفته . فقال لهما ما هذا الكلام الذي تتطارحان به وأنتما ماشيان عابسين ؟ فأجاب أحدهما الذي اسمه كليوباس وقال له : هل أنت متغرب وحدك في أورشليم ولم تعلم الأمور التي حدثت فيها هذه الأيام ؟ فقال لهما : وما هي؟ فقالا : المختصّة بيسوع الناصري الذي كان **إنساناً نبيًّا** مقتدراً في الفعل والقول أمام الله وجميع الشعب ، كيف أسلمه رؤساء الكهنة وحكامنا لقضاء الموت وصلبوه ، ونحن كنا نرجو أنه هو المزمع أن يفدي إسرائيل ، ولكن مع هذا كله اليوم له ثلاثة أيام منذ حدث ذلك ؟ ... فقال لهما : أيها الغبيان والبطيئا القلوب في الإيمان بجميع ما تكلم به الأنبياء ، أما كان ينبغي أن المسيح يتألم بهذا ويدخل إلى مجده ؟ ثم ابتدأ من موسى ومن جميع الأنبياء - يفسر لهما الأمور المختصّة به في جميع الكتب ، ثم اقتربوا إلى القرية التي كانا منطلقين إليها وهو تظاهر كأنه منطلق إلى مكان أبعد . فألزماه قائلين : امكث معنا لأنه نحو المساء وقد مال النهار ، فدخل ليمكث معهما ، فلما اتكأ معهما أخذ خبزاً . وبارك وكسر وناولهما . فانفتحت أعينهما وعرفاه ثم اختفى عنهما» (لو ٢٤ : ١٣ - ٣١) .

وبجانب هذا كله هناك إشارة في إنجيل يوحنا تستحق التأمل «إن كنتم تحبونني فاحفظوا وصاياي ، وأنا أطلب من الآب أن يعطيكم **معزّيا آخر** ليمكث معكم إلى الأبد . روح الحق الذي لا يستطيع العالم أن يقبله لأنه لا يراه ولا يعرفه ، وأما أنتم فتعرفونه لأنه ماكث معكم ويكون فيكم . لا أترككم يتامى ، إني آتي إليكم . وبعد قليل لا يراني العالم أيضاً

وأما أنتم فترونني » (يو ١٤ : ١٥ - ١٩) «وأما المعزّي الروح القدس الذي سيرسله الآب باسمي فهو يعلّمكم كل شيء ويذكركم بكل ما قلته لكم» (يو ١٤ : ٢٦) «ومتى جاء المعزّي الذي سأرسله أنا إليكم من الآب روح الحق الذي من عند الآب ينبثق فهو يشهدني » (يو ١٥ : ٢٦)..

لكني لا أريد أن أفتح باب الجدل العقائدي الذي قلت إنه حجب عن الأعين نور المسيحية ، وإنما أريد أن أقنع المسلمين بأن العهد الجديد المتداول لا يتعرض فقط لما ينكرون ، وحتى ما ينكرونه فيه مجال كبير للبحث والنظر . . ليرفضوا عن بيّنة كما اقتنعوا عن بيّنة ، ولا يعيش الواحد منهم ويموت غير عالم شيئاً من هذه الديانة الكبرى ، مع أن كتابهم ينعي على التقليد والمقلدين ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُواْ بَلْ نَتَّبِعُ مَآ أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ﴾ ، ومع أن أصولهم الاعتقادية تعلن:

إذ كل من قلّد في التوحيد إيمانه لم يخل من ترديد

ولا يعني التجاوب العقلي على أساس الدراسة العلمية المقارنة للأديان أن يُصطنع التوافق التافه الباهت الممقوت ، وأن تُعتسف الوحدة الفكرية على أساس الافتراء على اللغة والمنطق والتاريخ . هذا عبث لايزيد الناس إلا بُعداً وتجافياً .

كتب الأستاذ محمد رشيد رضا يقول : «إن تلك الأقوال المعروفة عند النصارى دفعت بعض الراغبين في التأليف بينهم وبين المسلمين إلى الجمع بين ما جاء في القرآن العزيز وما يؤخذ من الأناجيل بنوع من التأويل : وهو أن قول القرآن ﴿وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا﴾ يشعر بأنه قد حصل ما هو مظنّة القتل ، لأنه صورة من صوره ووسيلة من وسائله ، وذلك التعليق على الخشبة الذي كان بدون كسر عظم ولا إصابة عضو رئيسي ، ولم يطل زمنه فكأنه ليس صلباً ، وعندهم أن هذا هو معنى قوله ﴿وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ﴾ - وهذا التأويل بعيد . وممن ولع بالجمع بين النصرانية البولسية التي تؤخذ من الكتب التي يسمونها العهد الجديد وبين الإسلام قسيس من طائفة الروم الأرثوذكس اسمه (خريستوفورس جباره) كان برتبة ارشمندريت وكاد يكون مطراناً ، فخلع ثوب الكهنوت وطفق يدعو إلى التأليف والجمع بين الإسلام والنصرانية ، ويقول بعدم التنافي بينهما ، ويؤلف الكتب في ذلك . يثبت فيها التوحيد وصدق القرآن ونبوة محمد ، مع صحة

الأناجيل وتطبيقها على القرآن . ولكن لم يستطع أن يؤلف حزباً ، وإنني أعتقد أنه كان مخلصاً في عمله ، وكان الأستاذ الإمام يحسن الظن به أيضاً ، ويرى أن دعوته لا تخلو من فائدة وتمهيد للتأليف بين الناس ، وظهور دين الحق في جميع البلاد .. ولكن المحال هو الجمع بين دين القرآن وبين الديانة البولسية المبنية على أن الثلاثة واحد حقيقة وعلى عقيدة الصلب والفداء .. إلخ »[1] .

الحق أن هذه محاولات غير مجدية ، والمجدي أن يُنظر إلى الأمور النظرة الواقعية الصحيحة **فالإسلام إسلام ، والمسيحية مسيحية ، وهما يتفقان ويختلفان ، ومن الخير أن يُسلَّم بالمختلف كما يُتفَق على المؤتلف ، دون أن يختل ميزان الحق والعقل** . ونحن نقرأ للأستاذ الإمام محمد عبده توجيهاً في البسملة (بسم الله الرحمن الرحيم) قال فيه «... الذي عرف هو قول النصارى في ابتداء شئونهم باسم الآب والابن والروح القدس ، وهو في زعمهم ثلاثة مختلفة الآحاد مع أنها واحد ، فأراد الله أن يجعل للمسلمين فاتحة أعمال تحتوي على ثلاثة معان : الأول ذات والآخران صفتان - فلفظ الجلالة هو الذات وهو يقابل الآب عندهم ، والرحمن وصف الفعل المتجدّد الصادر من فيض الكرم وهو يقابل الابن لزعمهم أنه منبثق من الذات ، والرحيم يدل على الصفة الثابتة للذات الأقدس وهي التي يرجع إليها الفعل المتجدّد وباعتبارها يصدر ويتجدّد وهو يقابل روح القدس فإنه عندهم الصلة بين الآب والابن - وإن حاولوا ستر ذلك بضروب من العبارات . فأراد الكتاب أن يعلمنّا كيف نضع التوحيد مكان التثليث ، ونستبدل بألفاظ التشبيه خيراً منها من ألفاظ التنزيه ، ولا يفوتنا المعنى الذي يحتج بقصده من الآب والابن والروح القدس وهو معنى الرحمة وإفاضة النعمة ، وهذا هو وجه تكرير هذه الفاتحة الكريمة في كل سورة والندب إلى الافتتاح بها في كل عمل ذي بال ». وقد عقّب على هذا القول الأستاذ الإمام حسن البنا بعد أن أورده في ثنايا تفسيره للفاتحة : «أقول : لو قبل أهل الدين من النصارى هذا التفسير ، لانحلّت أعظم عقدة تباعد بين عقيدتي المسيحية والإسلام »!![2] .

---

١ - رشيد رضا : عقيدة الصلب والفداء - الطبعة الثانية ص ٧٥ - ٧٧.

٢ - مجلة الشباب ، عدد ٢ .

وأنا أعتقد أن الأمر ليس بهذه البساطة ، وأن من الخير أن يُعترفَ أصلاً بوجود الخلاف ، وألا تكون الطريقة إلى الوفاق هي الدهان السطحي الظاهري للألفاظ والعبارات ببريق لماع ، بل الولوج الصحيح من الباب ، وحصر الخلاف في نطاقه المحدود ، ثم تلمّس الاستفادة من الدائرة الواسعة للاتفاق الحقيقي بدلاً من المداهنات التي لاتغني .

ومن حصر نطاق الخلاف أن يُفرّق بين ما ثبت في نصوص الأناجيل المتداولة ، وبين الشروح والتأويلات الفلسفية ، والتقاليد الكنسية وما إلى ذلك .

هذا هو حق المسيحية على الإسلام كما يوجبه الإسلام ، وللمسيحية حق على مصر تمليه ظروف المكان ، ففي إحدى الروايات الإنجيلية «وبعد ما انصرفوا إذا ملاك الرب قد ظهر ليوسف في حلم قائلاً : قم وخذ الصبي وأمه واهرب إلى مصر ، وكن هناك حتى أقول لك ، لأن هيرودوس مزمع أن يطلب الصبي ليهلكه ، فقام وأخذ الصبيّ وأمه ليلاً وانصرف إلى مصر ، وكان هناك إلى وفاة هيرودوس ، لكي يتم ما قيل من الرب بالنبي القائل : من مصر دعوت ابني .. فلما مات هيرودوس إذا ملاك الرب قد ظهر في حلم ليوسف في مصر قائلاً : قم وخذ الصبي وأمه واذهب إلى أرض إسرائيل لأنه قد مات الذين كانوا يطلبون نفس الصبي » (مت ٢ : ١٣ - ١٥ ، ١٩ - ٢٠).

وقد كتب هـ . آيدرس بل Bell أستاذ علم البردي papyrology بأكسفورد «وعند هذا التاريخ - أواخر القرن الثالث - ينبغي أن ندخل في حسابنا عاملاً جديداً ؛ وهو المسيحية - التي لا تزال معلوماتنا عن بدء انتشارها في مصر طفيفة جدًّا . ولئن كنا نميل إلى استبعاد القصة القائلة بأن القديس مرقس هو الذي أسس كنيسة الإسكندرية ، إلا أننا نظن أن الدين الجديد لم يكن ليتأخر في الوصول إلى أكبر ميناء في شرقي البحر المتوسط ، وأنه لم يكن هناك محيص بعد ذلك عن انتشاره في سائر أنحاء مصر .. على أننا نستخلص من أوراق البردي الأدبية أن المسيحية كانت قد تغلغلت في مصر الوسطى ومصر العليا ، ولدينا الآن ما لا يقلّ عن سبع قصاصات من البرديات الإنجيلية التي يمكن أن ننسبها باطمئنان إلى القرن الثاني ، بل إن جميع الباحثين الثقات ينسبون إحدى هذه القصاصات

التي تتضمن بعض فقرات من إنجيل القديس يوحنا إلى مستهل القرن الثاني . ولابدَّ أنه كان يوجد في مقابل كل بردية مسيحية حفظتها لنا محض الصدف مئات من البرديات التي عفا عليها الزمن ، وأن كل مسيحي كان لديه مثل هذه البردية يقابله عشرات لم يكن لديهم شيء »[1] .

هذا كله ، أحببت أن أكتب عن المسيحية ..

وكان أمامي رواد مصريون في هذا الباب ، من الأساتذة الثقات ، وقرأت للأستاذ الباحث محمد أبو زهرة في مقدّمة كتابه القيم (محاضرات في النصرانية) : «عسير على المرء أن يكتُبَ في رأي يخالف رأيه ، ويقدر مع هذه المخالفة أن يصوّر الرأي كما يجول بخاطر صاحبه وينبعث في نفسه ، فيبين دوافعه وغاياته . وإن كان ذلك واضحاً في رأي مخالف يرتأى ، فكيف تكون الحال إذا كانت المخالفة في عقيدة تُعتنقُ وتَتغلغلُ في أعماق النفس وتستكنُّ في أطوائها؟؟!! ولكن البحث العلمي يتقاضى الباحث الحرّ المنصف أن يدرس المسيحية – إن أراد أن يعلمها كما يعتقد أهلها – مجرداً من نزعاته السابقة على الدراسة ، غير جاعل لعقيدته سلطاناً على حكمه ، حتى لا تسيّره في دراسته وتتحكم في اتجاهاته لأن ذلك قد يدفعه لأن يتزيّد... وإذا كان الإنصاف قد طالبنا بألا نزيد على ما عندهم ، أو نحرفه عن مراده ومرماه ، فالإنصاف يطالبنا بألا نهمل العقل ، وإلا خرج بحثنا عن معناه العلمي التاريخي »[2].

ما أصعبها إذن من مهمة ...

وأرجع لمؤرخ الحضارة الأستاذ ول ديورانت فتزداد المهمة صعوبة وخطراً: «هل وجد المسيح حقًّا ، أو أن قصة حياة مؤسس المسيحية ، وثمرة أحزان البشرية وخيالها وآمالها أسطورة من الأساطير ؟ لقد كان بولينجبروك Bolyngbroke والملتفون – حوله وهم

---

١ – هـ . آيدرس بل H A. Bell مصر من الإسكندر الأكبر حتى الفتح العربي – ترجمة الدكتورين عواد حسين وعبد اللطيف أحمد علي ص ١٦٨ ، ١٦٩ .

٢ – محمد أبو زهرة : محاضرات في النصرانية ص ٥ ، ٦.

جماعة ارتاع لأفكارهم فوليتر Voltare نفسه - يقولون في مجالسهم الخاصة : إن المسيح قد لا يكون له وجود على الإطلاق !! وجهر فولني Volney بهذا الشك نفسه في كتابه (خرائب الإمبراطورية - ١٧٩١م) . ولما التقى نابليون سنة ١٨٠٨م بفيلاند Wieland العالم الألماني ، لم يسأله القائد الفاتح سؤالاً تافهاً في السياسة أو الحرب بل سأله : هل يؤمن بتاريخية المسيح ؟ ولقد كان من أعظم ميادين نشاط العقل الإنساني في العصر الحديث وأبعدها أثراً ، ميدان (النقد الأعلى) للكتاب المقدس ، والتهجم الشديد على صحته وصدق روايته ، تقابله جهود قوية لإثبات صحة الأسس التاريخية للدين المسيحي ، وربما أدت هذه البحوث على مرِّ الأيام إلى ثورة في التفكير لا تقل شأناً عن الثورة التي أحدثتها المسيحية نفسها »[1] .

كيف السبيل إذن لدراسة المسيحية مع هذه الصعوبات والأخطار؟

أقصر الطرق هو دراسة الأناجيل المتداولة ، إن لم يكن هذا هو الطريق الوحيد . ودراسة الأناجيل المتداولة تختلف وجهات النظر إزاءها . فقد ألف الأستاذ عبد الوهاب النجار من قبل كتابه (قصص الأنبياء) ، وتحدّث عن منهجه في مقدّمة الطبعة الأولى «أُقسّم قصص النبي من الأنبياء إلى عدة مواقف ... يغلب أن أذكر ذلك الموقف إن كان له ذكر في كتب العهد القديم (التوراة) أو العهد الجديد (الإنجيل) ، وهو أحياناً يوافق القرآن وأحياناً يخالفه . ولا يعزب عن فكر القارئ الكريم أن القرآن جاء مصدقاً لما بين يديه من الكتاب ومهيمناً عليه ، فما جاء به هو الحق الذي لا مراء فيه وكل ما يخالفه لا معوّل عليه ... ولكني بذلك أنبّه الطالب - طلبة تخصص الوعظ والإرشاد - الذي سيكون عرضة للاتصال بأهل الكتابين بحكم مهمته وبصدد أن ترد عليه النصوص منهما في الموضوعات المختلفة ، ليكون على استعداد للإجابة عما يسأل عنه وتكون عنده فكرة عنها وليأخذ منها ما يساعده على أدلته وبراهينه و ... إلخ ». ومع هذا التحفظ الذي أورده المؤلف فقد حقّق الأزهر فيما أورده المؤلف في كتابه ، فشكلت لجنة من الأساتذة المشايخ محمد أحمد بديوي ومحمد العزبي

---

١ - ديورانت : قصة الحضارة ج٣ من م٣ (قيصر والمسيح) ترجمة محمد بدران ص ٢٠٢ ، ٢٠٣ .

رزق وعيسى منون ، أتبعتها لجنة برئاسة الأستاذ الشيخ إبراهيم الجبالي وعضوية الأساتذة المشايخ عيسى منون ومحمد العزبي رزق ومحمود أبي دقيقة بأمر شيخ الأزهر ، وأسفر الأمر عن تقرير مطوّل ردّ عليه المؤلف في الطبعة الثانية للكتاب ، ومما جاء في هذا التقرير : «نحن والحق يقال في حيرة شديدة من تصرف الأستاذ مؤلف هذا الكتاب ، ولم نهتد إلى جواب عن تصرفه هذا تطيب إليه النفس . ذلك أنه اعتبر (إنجيل متى) كتاباً ثابتاً صحيحاً معتمداً يجوز صرف القرآن الكريم عن ظاهره وتأويله على مقتضى ما ورد في هذا الإنجيل ، مع الإعراض عن المأثور في تفسير القرآن وعما أجمع عليه أئمة التفسير .. يقول فضيلته ويكرر القول إن مسألة المائدة السماوية التي جاء بها القرآن الكريم هي مسألة الأرغفة الخمسة والسمكتين المحكيّة في الإصحاح الرابع عشر من إنجيل متى! ». وقد ردّ المؤلف على هذه المسألة تفصيلاً في الطبعة الثانية ، وأوضح قواعد منهجه في المقدّمة «كتب العهد القديم والجديد ما كان منها موافقاً للقرآن فهو حق ، وما كان منها مخالفاً للقرآن فهو باطل ، وما كان القرآن ساكتاً عنه فلا نقطع بصدقه ولا بكذبه ويجوز نقله والاستئناس به . أقوال المفسرين ليست حجة قاطعة فيما نصت عليه ، بل هي أوجه . كما يجوز حمل عبارة القرآن عليها يجوز مخالفتها وحمل عبارته على غيرها ولا مؤاخذة على من خالفها . القرآن الكريم لا تنقضي عجائبه ولا تنفد غرائبه ، فلكل امرئ أن يتدبره بعقله ويفهمه على الوجه الذي يستقر في اعتقاده . بشرط أن يكون ذلك جارياً على مقتضى العربية غير مخلّ بفصاحته ولا مخلّ بشيء من مقاصد الدين . متى اختلف التابعون لم يكن بعض أقوالهم حجة على بعض »[1].

وعلى النقيض من مذهب اللجنة التي انتقدت كتاب الأستاذ النجار ، كان رأي الأستاذ العقاد «وليس من الصواب أن يقال إن الأناجيل جميعاً عمدة لا يعوّل عليها في تاريخ السيد المسيح ، لأنها كتبت عن سماع بعيد ولم تكتب من سماع قريب في الزمن والمكان ، ولأنها في أصلها مرجع واحد متعدد النقلة والنساخ ، ولأنها روت من أخبار

---

١ - عبدالوهاب النجار : قصص الأنبياء - الطبعة الثالثة (المكتبة التجارية) المقدمة ، هامش ٤١٣ .

الحوادث ما لم يذكره أحد من المؤرخين كانشقاق القبور وبعث موتاهم وطوافهم بين الناس - وما شابه ذلك من الخوارق والأهوال ... **وإنما الصواب أنها العمدة الوحيدة في كتابة ذلك التاريخ** ، إذ هي قد تضمنت أقوالاً في مناسباتها لا يسهل القول باختلافها . ومواطن الاختلاف بينها معقولة مع استقصاء أسبابها والمقارنة بينها وبين آثارها ، ورفضها على الجملة أصعب من قبولها عند الرجوع إلى أسباب هذا وأسباب ذاك . **فإنجيل متى** : مثلاً ملحوظ فيه أنه يخاطب (اليهود) ويحاول أن يزيل نفرتهم من الدعوة الجديدة ، ويؤدي عباراته أداء يلائم كنيسة بيت المقدس في منتصف القرن الأول للميلاد . **وإنجيل مرقس** : على خلاف ذلك ملحوظ فيه أنه يخاطب (الأمم) ولا يتحفظ في سرد الأخبار الإلهية التي كانت تحول بين بني إسرائيل المحافظين والإيمان بإلهية المسيح . **وإنجيل لوقا** : يكتبه طبيب ويقدّمه إلى سرّى كبير فيورد فيه الأخبار والوصايا من (الوجهة الإنسانية) ، ويحضر في ذهنه ثقافة السرّى الذي أهدى إليه نسخته وثقافة أمثاله من العلية . **وإنجيل يوحنا** : غلبت عليه فكرة (الفلسفة) وبدأه بالكلام عن الكلمة Logos ، ووصف فيه التجسد الإلهي على النحو الذي يألفه اليونان ومن حضروا محافلهم ودرجوا معهم على عادات واحدة ، **وسواء رجعت هذه الأناجيل إلى مصدر واحد أو أكثر من مصدر ، فمن الواجب أن يدخل في الحسبان أنها هي العمدة التي اعتمد عليها قوم هم أقرب الناس إلى عصر المسيح ، وليس لدينا نحن بعد قرابة ألفي سنة عمدة أحق منها بالاعتماد** »[1] .

والكتاب الذي بين يدي القارئ سيستند إلى الأناجيل المتداولة في **الحديث عن المسيحية** .. فأنا أريد أن أتحدث عن المسيحية من وجهة نظر أهلها ، وأريد أن أثبت للمسلمين والمسيحيين أن مجال الخلاف أضيق من أن يحجب كلًّا من الدينين العظيمين عن معتنقي الدين الآخر ، وأن بجانب المجادلات العقائدية الذائعة المحدودة ، آفاقاً رحبة في الأناجيل المتداولة تفيض بالدعوة إلى الخير والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر .

---

١ - العقاد : عبقرية المسيح (كتاب اليوم) ص ١٩٤ ، ١٩٥ .

وكثيراً ما تجذبني نصوص الأناجيل المتداولة إلى مواقف مشابهة في الإسلام ، وهذا التوارد والتقارب والتمازج أكبر شاهد على وحدة دين الله على ألسنة جميع المرسلين والكتب ...

والدين المسيحي - كالدين الإسلامي - يواجه اليوم أخطاراً بالنسبة للعقلية المعاصرة ، فلا حرج أن تتعاون الثقافتان فيما يتفقان عليه انتصاراً لقضية التدين جملة وهي تتعرض للامتحان . وأنا مازلت متفائلاً من كفاءة العقل البشري لمهمته التي تتضخم أعباؤها يوماً بعد يوم ، واثقاً من أنه - في الحساب النهائي والمدى البعيد - لن يتهاوى أو يطيش ، مؤمناً كذلك بأن (الدين) لن يفقد صلاحيته لأي بيئة أو جيل .

وهأنذا أؤدي واجبي ، وأطلع قومي على ما عند أهل المسيحية اليوم من تراث ، وأطلع أهل المسيحية على ما عند واحد من المسلمين ، ما في قلبه من مشاعر وما في عقله من خواطر ، وهو واحد يحسب أنه وهو يقول ما يقول لن يتخلى عن إخلاصه لدينه ، بقدر ما لا يفرط - قدر طاقته المتواضعة - في الحيدة والإنصاف ، وهو يتحرى جهده - ألا يتورط في المجاملة أو التحامل على السواء .

ويرجو أن يكون العمل الذي يتقدم به اليوم مقبولاً عند الله ، مثمراً بين الناس .

فتحي عثمان